فى مجلات الغرب

من الجزائر

فورج عدد خاص عن الكاتب الأسبانى سرفانتس (١)

[ذلك الجلال الجبار الذى تتتابع به حوادثها ، وذلك الارهاف الذى تنفذ به إلى أعماق قلوبنا ، والذى تجعلنا ننفذ به إلى طوايا القلوب ، ما تكشفه القصة من ضعف تخضعنا له حواسنا ، ومن جبروت طاغ تخضعنا له شهواتنا ، كل هذا يجعلنا — فى إعجاب غامر — نقرن هذه القصة «قصة دون كيشوت» بأرق وأقوى ما كتب دستويفسكى وشكسبير من صفحات .]

جان كاسو

تمت فى العام الماضى أربعمائة سنة على مولد ميجويل دى سرفانتس (٢) فى الكلا دى هينيرس — مدينة يتم اسمها الأسبانى عن أصله العربى ويذكر بملك العرب وقلاعهم وحضارتهم فى الأندلس . ولد فى أسرة متواضعة عجزت حتى عن أن ترسله إلى المدارس ، وعاش حياة شاقة لم يعرف الراحة فيها قط . اشتغل خادما وكاتبا للقاصد البابوى ، فثقلت عليه حياة لا استقلال له بها ولا مجد فيها ، وغامر فى حياة الجندية فأصيب فى ذراعه بعاهة يوم وقعة ليبانت ، وقبض عليه القراصنة وأسروه فى الجزائر سنوات ، واشتغل كاتبا للحسابات فكان يقع فى أخطاء حسابية تؤدى به إلى السجون ، ثم مات فى نفس اليوم الذى مات فيه شكسبير (٣) ، مات مشردا معدما وإن كان قد خلف للانسانية تراثا وسع كل الأمم فشاركت وما زالت حتى اليوم تشارك فيه ، ترك لنا كتاب « دون كيشوت » وكتاب « القصص المثالية » كما ترك لنا مسرحية « نومانس » .

مولد سرفانتس فى الأندلس ، وأسره فى بلاد المغرب العربى ، ما لحه وحققه البحث العصرى من صلات وتأثيرات للأدب

---

(١) *Forge*, Cahiers litteraires Nord-Africains, No. 5 et 6 Octobre - Novembre 1947 : « Hommage à Cervantes ».

(٢) أنظر «ميجويل سرفانتس» فى مجلة «الكاتب المصرى» عدد ٣٥ (أكتوبر ١٩٤٧).

(٣) ٢٣ ابريل سنة ١٦١٦ .

العربي في قصته « دون كيشوت » (١) ، وأخيراً ما تجلوه آثار سرفانتس على أهل عصرنا ، في تخلهم وشكوكهم واستخفافهم ، من معاني الايمان والطموح والعمل الايجابي لتحقيق المثل العليا ونصرة الخير والحق — بعض هذا كان سبباً كافياً لاخراج هذين العددين من مجلة « فورج » تحية لسرفانتس ، وهذا كله يجعلنا نقصر الحديث اليوم عليهما .

وأول ما نلاحظه في هذين العددين — وقد صدرا في مجلد واحد — هو مشاركة الكتاب والفنانين العرب في إصداره . كتب بعضهم بالفرنسية ، ولكن بعضهم كتب لأول مرة باللغة العربية ونشر مقاله بهذه اللغة مع ترجمة فرنسية . وهذه أول مرة تنشر المجلة فيها مقالات بالعربية . تثبت هذه الخطوة الجديدة في سبيل التعاون والتفاهم وتقدرها قدرها ، ولكنا نرجو أن تكون عناية الذين يكتبون بالعربية في أعداد المجلة القادمة أظهر جداً من عناية الذين كتبوا بها ، ومن ترجموا من الفرنسية إليها في هذا المجلد . ثم نلاحظ عناية المجلة بالرسوم الفنية في هذا المجلد ؛ فقد ألحقت به سبع صور ممتازة قوية التعبير كلها من وحي سرفانتس ، منها صورة رسمها الرسام العربي محيي الدين الطرطوشي تمثل سرفانتس في أحد شوارع مدينة الجزائر عام ١٥٧٥ ، ومنها اللوحة التي رسمها دي بوزون لدون كيشوت وسانشو بانزا بطلي قصة سرفانتس الخالدة . وقد وفق الفنان في هذه اللوحة ليس إلى تصوير الرجلين فقط ، بل إلى التعبير القوي عن الصراع الذي مازال يقسم نفس الانسانية منذ الأبد ، والذي تمثله قصة « دون كيشوت » . نرى في أدنى اللوحة التي رسمها الفنان صورة سانشو قاعداً مطمئناً في قعوده ، باسماً ، راضياً عن نفسه كل الرضا . هو راض عما حوله من طعام وشراب وأداة من أدوات اللهو ، ومطية سهلة يسيرة هي الحمار الذلول بصره مردود إلى الأرض يقصر على الخبز واللحم والخمر ، في عينيه وشفتيه ابتسامة كلها دعة وبلادة واطمئنان . في أعلى الصورة يرتفع قوام دون كيشوت لايظهر الفنان منه إلا نصفه الأعلى ، وقد حجبت جثة سانشو نصفه الأسفل ، فهو يبدو للناظر وكأنما ينشق عن رجل القناعة والرضا ويسمو منه ، في يساره كتاب يعلم منه الحق والعدل وفي يمينه سيف يقر به الحق والعدل اللذين آمن بهما ، عيناه إلى السماء يرقى بهما إلى المثل الأعلى الذي لايزال ينشده ، وبوجهه آثار ذلك الهم النبيل الذي تنطوي عليه نفسه ، قد ظهر من خلفه في الصورة جواد بيجاز (٢) وهو ثائر ، مشبوب ، تكاد تتحرك الصورة بنزاعه إلى الوثوب ، هيئة أرادها الفنان مناقضة كل المناقضة لخمول الحمار في ضجعته ، كما جعل صورة دون كيشوت مناقضة لصورة سانشو ، فنجح فيما أراد كل النجاح .

وقفنا عند هذه الصورة قليلا لأنها تكاد تلخص فكرة المجلد كله ، فان التحية الموجهة إلى سرفانتس في هذا المجلد ، لم تتمثل في اطراد أسلوبه أو حتى نقده وتحليله ، ولكنها قد اتجهت إلى استخلاص وتجلية البواعث والهموم والمقاصد التي توحيها كتابات هذا الانساني الخالد . نرى هذا في

---

(١) ألقى الدكتور طه حسين بك محاضرة عامة عن هذا الموضوع في جامعة فاروق الأول في الاسكندرية سنة ١٩٤٣ .

(٢) Pégase

الحوار الطويل — أو المسرحية القصيرة — الذى يطالعنا فى أول العدد[1]. كتب هذا الحوار الكاتبان جوزيه سانشيس بانوس ولويس بيير فبلغا فيه مبلغا عظيما جدا من التوفيق ، ولخصا فى صفحات قليلة قوية حياة وعمل وتفكير سرفانتس. وقد بدآ هذا الحوار فى مدينة الجزائر حيث سجن سرفانتس فى إحدى سنوات الأسر أيضا ، سنة ١٥٧٩ . وقد ختم الكاتبان الحوار بما يشبه المغزى أو الموعظة التى يستخلصانها من مسرحياته القصيرة . وكنت أود لو عفى القراء من هذا الختام ، فليس بهم إليه حاجة ، وقد كان فى الحوار نفسه بما فيه من وة الرمز وحسن الأداء ما يغنى عن بسط لمغزى للقارئ .

يلى هذا الحوار مقال قليل القيمة عن عصر سرفانتس للكاتب جورج ماريا ، ثم مقال آخر عن المحيط الطبيعى الذى تدور فيه حوادث قصة «دون كيشوت» — كتب هذا المقال بالفرنسية الكاتب عمر جلالى[2] فأحسن إحساناً كبيرا . يبدأ مقاله بتتبع رحلة مؤلف « دون كيشوت » من أشبيلية إلى مقاطعة لامانش عام ١٥٦٩ ، ثم يقدم للقراء صورة للمقاطعة فى ذلك العهد بمدنها وقراها ، بما فى تلك المدن والقرى من شوارع وأزقة وبيوت وناس ، ويصور جبال المقاطعة الموحشة وأوديتها الفقيرة القاحلة ، وما كان يتسامر به أهل الجبال أو يتهامس به أهل الأودية من القصص والأساطير وحكايات المغامرات ، يصور هذا كله مثبتاً تأثر سرفانتس العميق بطبيعة تلك المقاطعة ، متتبعاً هذا التأثر فى قصة « دون كيشوت » ، موضحاً كيف كانت مقاطعة لامانش جديرة بأن توحى إلى سرفانتس شخصية كيشوت البطل الحالم والشاعر المغامر فى نفس الوقت الذى توحى إليه فيه شخصية سانشو الفلاح الخامل القانع بالبحث عن رزق يومه .

وفى مقال آخر يرى الكاتب الأسبانى مونوا[3] أن دون كيشوت ليس إلا صورة من نفس مؤلف القصة ، وأن صراع دون كيشوت ونزاعه إلى المثل الأعلى هو صراع سرفانتس ونزاعه ، وإن يكن قد أضفى عليه من الابتسام والسخرية الرقيقة ستاراً لا يحجب ما تحته من صرامة وجد . ثم يرى الكاتب أن شخصية دون كيشوت وشخصية سرفانتس نفسه ليستا إلا صورة من نفس أسبانيا ، أسبانيا المكافحة الثائرة لمثل العدل والحب والحرية والسلام دائماً .

وفى تصوير هذه الثورة الدائمة لتحقيق تلك المثل العليا ، وفى الرمز إلى أن أسبانيا ما زالت حتى يومنا الحاضر ثائرة لتحقيق تلك المثل المنشودة ، يكتب الكاتب الأسبانى جوزيه سانشيس بانوس مقالا ثانيا عنوانه « أسير قراصنة آخرين »[4]. وحول هذه المعانى نفسها يكتب مارسيل هارويمى مقالا ممتازا عن نومانس[5] المدينة الأسبانية التى خلدها سرفانتس فى تصويره لكفاحها للحرية ، المدينة الأسبانية التى عرف أهلها أن الرومان سيغزونهم فى عقر دارهم ، وأنهم

---

(١) José Sanchis Banus et Louis Pierre, *Evocation de Cervantès*

(٢) Omar Djillali, *Paysages du Don Quichotte*

(٣) *Sobre la Obra de Cervantes*, por Eulogio Munoa

(٤) *El Cautivo de Otros Corsarios*, por José Sanchis Banus

(٥) M. Harouimi, *Numance ou la tragédie d'un peuple libre*

لا قبل لهم بهم وأن لاسبيل إلى الفرار منهم ، ففضلوا الموت على التعرض لاستعبادهم وتناحروا جميعاً إلا واحدا منهم أحب الحياة حبا جما فلاذ ببرج المدينة الشاهق يعتصم به . جبن عن أن يقتل نفسه أو أن يدعو غيره إلى قتله كما فعل مواطنوه جميعاً . وقد بقى بالبرج حتى دخل الرومان إلى نومانس فلم يجدوا من يستأسر من أهلها ليسعوا به إلى روما ويسيروا به فى طرقاتها ويزفوه إلى أهلها رمزاً لانكسار نومانس واستذلالها . حتى إذا بلغوا البرج ورأوا ذلك الذى اعتصم به أمنوه ، وعرف أنهم مبقون على حياته ، ساعون به إلى روما ، فعز عليه أن يخذل مدينته نومانس وما خذلها من أهلها سواه ، فلم يستسلم ولم يستأسر وألقى إلى قائد الرومان خطابا قوياً رائعاً أوله حديث الخوف الذى أحس به والجبن الذى أطلق ساقيه بالفرار إلى البرج ثم قيدهما به ، ثم أشار إلى الأسر الذى إن أبقى عليه حياة جسده فانه متلف نفسه ، وإلى الذل الذى سيلحق ببلده إن هو استأسر ، وانتهى إلى أنه الآن يحس قوة نفسه ترتد إليه ، ويجد بعض تلك القوة التى عرفها مواطنوه ، وفروا بها من الذل إلى الموت ، ثم يتبع ذلك بالقاء نفسه من أعلى البرج فيعصمه الموت من الأسر والاستذلال . يحكى الكاتب قصة هذه المدينة ويحلل المسرحية الرائعة التى صور مؤلف «دون كيشوت» فيها تلك البطولة ، والخطبة التى أجراها على لسان صاحب البرج ، مسجلا الجملة المأثورة «إن نومانس قد هزمت هازميها»

وهذا المقال لايمتاز بروعته وبما يهز فينا من مشاعر الوطنية فقط ، ولكنه يلفت القارئ إلى أن شهرة سرفانتس باعتباره مؤلف «دون كيشوت» لا ينبغى أن تحجب نبوغه باعتباره مؤلفاً مسرحياً جديراً بأن يقرن ويقارن بمعاصره الاسبانى دى فيجا [1] بل بمعاصره الانجليزى شكسبير .

وهذا المجلد لايظهر لنا سرفانتس كاتباً ومؤلفاً مسرحياً فقط ، ولكنه يقدم إلينا قصيدة إسبانية من شعر سرفانتس مع ترجمة فرنسية لها ، وهى قطعة غزلية عنوانها «التنجيم» [2] .

وإلى جانب شعر سرفانتس قصائد أخرى أوحتها أعمال سرفانتس لشعراء محدثين من الفرنسيين والاسبان ، نذكر منها مع الاعجاب قصيدة « فى طريق الحلم » للشاعر الاسبانى سيجوفيا [3] . والعدد لا يظهر أثر سرفانتس فى فن الشعر فقط ، ولكنه قد خصص مقالين ، أحدهما للحديث عن تأثير « دون كيشوت » فى الغناء والآخر عن تأثيرها فى السينما .

وقد أخرت حتى ختام هذا المقال عرضى للقصة العربية التى حدث بها محمد عبدالجليل الجزائرى وكتبها رشيد التونسى [4] ، أخرتها لمافيها من بساطة ومن رمز ومن إيحاء ، هى قصة جزائرى صغير فى الثانية عشرة من عمره ، تقع فى يده قصة « دون كيشوت » فيقرؤها فى ركن من أركان داره الريفية ، ثم يعود إلى قراءتها وقد خلبه ما فيها من ايمان دون كيشوت وحماسته للعدالة والنجدة ، فما هو إلا أن

---

(١) Lope de Vega

(٢) *La Buenaventura*

(٣) *Por Los Caminos del Sueno*, por S. L. Herrero Segovia

(٤) «لقاء مع سرفانتس» .

يقرأها المرة بعد المرة حتى يتحول إعجابه إلى رغبة ملحة فى أن يسير هو نفسه سيرة دون كيشوت ، وأن يطوف مثلما طوف بطل سافانتس ليحمى المستضعف ويذود برمحه عن حق المسكين . يصنع الصبى لنفسه من أغصان الشجر رمحا طويلا ، ويطوف على قدميه — فانه لم يجد حتى مثل الحصان الأعجف الذى وجده دون كيشوت ، وما يلبث أن يبدأ أولى مغامراته — وآخرها — حين يرى أعرابية صغيرة فى قبضة جندى فرنسى ؛ فقد رعت الصغيرة أغنامها فى بعض الأراضى التى جعلتها السلطات الفرنسية لنفسها وحظرت على الأعراب الرعى فيها ، وهذه البنت الصغيرة تتلوى وتصرخ وتبكى وتستنجد فى يد ممثل السلطة ، لا تعرف ولا تفهم ما جريمة الرعى وما حظر العشب على أغنامها . يرى عبد الجليل هذا فيتقدم بحربته ويرى بها الجندى من وراء فيسقط على الأرض ، وتفر الفتاة من قبضته وتعدو إلى البادية . ولكن الجندى يلتفت إليه وينهال بالضرب الموجع عليه ، ثم يريد أن يسعى به إلى السجن . ولم تنفع دون كيشوت الصغير لا حريته ولا خيالاته ، ولكن نجاه أن رآه شيخ من البدو ، لم يلبث أن غاب فى أشجار الزيتون ، ثم عاد بجماعة قد تسلحوا بأغصان من الشجر ، وبدت فى وجوههم علامات التصميم والاجماع والجد . تقدموا صوب الجندى والصبى ، ففهم الجندى وأسرع باطلاق الصبى بعد أن أنذره ألا يعود إلى مثلها . يقول عبد الجليل فى ختام المقال موضحا رمز المقال وايحاءه : « ولقد قرأت فى السنة الماضية كتاب «دون كيشوت» مرة أخرى ، فوجدت نفسى ما زلت معجبا « بهدلقو »(١) الخالد . ولكن استخلصت من تجاربى أن عهد المنتصرين للحق بمفردهم قد انقضى وفات ، وأن جماعة من الرجال تحدوهم الارادة والعزم والاتحاد ، ولو كانوا مسلحين بالعصى فقط ، يخدمون الحق أكثر مما يخدمه الفارس المسلح بالحربة . »

أمين طه حسين

---

(١) هدلقو تعريب Hidalgo يقصد دون كيشوت .